أثر الثورة الحسينية في الخلافة الأموية

أ.د. عطا سلمان جاسم ، م. محمد حسين علي ، جامعة واسط ، كلية التربية ، قسم التاريخ

المقدمة

أكد التاريخ الإنساني ان تضحيات الأبطال ذوي الأهداف السامية وجودهم بأنفسهم في سبيل تحقيق المبادئ التي امنوا بها، تعطي النتائج المرجوة في إحداث المتغيرات المطلوبة بعد حين، وان تبدو في وقتها أنها خسارة للقائمين بها وانتصار محقق مباشر لأعدائهم، ولعل أهم هذه النتائج هي عصفها بأركان الأنظمة الحاكمة وزعزعة قواعدها التي تستند إليها بفضل شعور الجماهير باليقظة التي قادتهم الى الثورة ان لم تكن أكثر من ثورة كي يتمكنوا بالنهاية من هدم أسس الظلم والطغيان وبناء مجتمع آخر تسوده أسس العدل والمساواة.

وتمثل ثورة الإمام الحسين بن علي(عليه السلام) النموذج الأعلى والنبراس الذي علا بمبادئها فوق كل الثورات وعلى مدى التاريخ، والشعلة التي أضاءت بنورها كل زوايا الظلام في كل الأرض المعمورة وفي كل عصر وزمان، لتنزع كوامن الظلم المغروسة في المجتمع من قبل الطغاة والمتسلطين.

وإذا كان من الطبيعي أن نسلم بان استشهاد الإمام الحسين بن علي(عليه السلام) قد ترك أثره الفاعل سريعاً في نفوس المضطهدين من عامة الناس على اختلاف آرائهم ومشاربهم ودفعهم الى الانتفاض على حكامهم المستبدين والانخراط في حركات هدفها الإطاحة بنظام بني أمية، كثورة التوابين (65هـ/684م) وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي (66هـ/685م) وثورات وحركات أخرى، وان كان يشوب بعض القائمين بها مصالح دنيوية، كحركة عبد الرحمن بن الأشعث (81هـ/700م) في العراق وغيرها من الحركات، فان من الأهمية بمكان ان تترك ثورة الإمام الحسين(عليه السلام) بصماتها على دار الخلافة ذاتها، وبالتالي تعصف بها، ومعها نعرف عمق وقيمة هذه الثورة التي وصل تأثيرها إلى رأس السلطة الأموية، وهو ما نحاول إيضاحه في بحثنا هذا.

ركزنا في بحثنا هذا على ثلاثة محاور رئيسة مثلت نماذج مختلفة من تأثيرات ثورة الإمام الحسين(عليه السلام) المباركة في دار الخلافة الأموية، هي: موقف الخليفة الأموي معاوية بن يزيد بن معاوية المعارض لسياسة أبيه وجده. وموقف الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وإصلاحاته في المجالات كافة وسياسته المغايرة لسياسة أسلافه، التي هدفت الى إصلاح النظام السياسي وبالتالي إنقاذ المجتمع من السقوط والانهيار، وثورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد، التي استلهم قوادها مبادئ ثورة الإمام الحسين(عليه السلام) ومثلها العليا في سبيل الإصلاح والتغيير. ومع ان هذه

الثورات والمحاولات لم تنجح في مبتغاها في الظاهر لأسباب وظروف شتى، الا أنها أسهمت بشكل كبير وأسرعت أخيراً في انهيار الحكم الأموي على يد العباسيين.

المحور الأول- معاوية بن يزيد والخلافة:

اتفقت المصادر التاريخية على أن خليفة الحاكم الأموي يزيد بن معاوية (60-64هـ/679-683م) المعروف بـ(معاوية الثاني) أو (معاوية الصغير)، وهو ابن الحاكم الأموي يزيد بن معاوية، والملقب بـ(الراجع الى الحق)[1]، رفض توليه الخلافة[2]، التي بويع لها بعد هلاك أبيه يزيد سنة أربع وستين هجرية[3]، وخلع نفسه منها[4]؛ وذلك لعدم قناعته بأحقية بني أمية في الحكم والى عدم رضاه عن سياستهم وانتزاعهم الحكم من الذين هم أحق منهم. يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها بعد اعتلائه الحكم مباشرة، وقد اختلفت المصادر في إيراد بعض مفرداتها ونصوصها[5]. وهي تؤكد ذكره لنزاع جده معاوية هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، ثم ذكر أباه يزيد وخلافته، وتقلد أمرهم لهوى كان أبوه فيه وسوء فعله وإسرافه على نفسه وكونه غير خليق للخلافة على امة محمدﷺ وإقدامه على ما أقدم من جرأته على الله وبغيه واستحلاله حرمة أولاد الرسولﷺ. ونص الخطبة كما أوردها اليعقوبي في كتابه التاريخ هي:

"أما بعد: حمد الله والثناء عليه، أيها الناس: إنا بلينا بكم وبليتم بنا فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا الا وان جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول اللهﷺ وأحق في الإسلام سابق المسلمين وأول المؤمنين وابن عم رسول رب العالمين وأبا بقية خاتم المرسلين فركب منكم ما تعلمون وركبتم منه ما لا تنكرون حتى أتته منيته وصار رهناً بعمل ثم قلت أبي وكان غير خليق للخير فركب هواه واستحسن خطأه وعظم رجاؤه فأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل فقلت منعته وانقطعت مدته وصار في حفرته رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه". ثم بكى وقال: "ان أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه وقد قتل عترة الرسولﷺ وأباح الحرمة وحرق الكعبة وما أنا

(1) الديار البكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج2، ص301؛ وللتفصيل ينظر: المحسن، معاوية الثاني والتشيع في البلاط الأموي، ص125 ومابعدها.

(2) أشارت الروايات التاريخية انه ولي أربعين يوماً، وقيل بل أربعة أشهر (اليعقوبي، تاريخ، ج2/ ص240 ؛ وذكر في رواية أخرى انه حكم لمدة عشرين يوماً (القضاعي، تاريخ، ص103).

(3) اختلفت الروايات في عمره يوم تولى الخلافة، منها من تقول انه ابن ثلاث عشرة سنة (الطبري، تاريخ، ج5/ ص503) في حين أشارت روايات أخرى ان عمره يوم تولى الخلافة كان ثمانية عشر، وأخرى تقول انه ابن عشرون وغيرها إحدى وعشرين (الديار البكري، الخميس، ج2/ ص301) في ذكر اليعقوبي الى انه كان ابن ثلاث وعشرين سنة (تاريخ اليعقوبي، ج2/ ص241).

(4) اليعقوبي، تاريخ، ج2/ صص241-242 ؛ الطبري، تاريخ، ج5/ ص531 ؛ الديار بكري، الخميس، ج2/ ص301.

(5) ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ج2/ صص241-242؛ القضاعي، تاريخ، ص103؛ الديار البكري، الخميس، ج2/ ص301.

المتقلد أموركم ولا المتحمل تبعاتكم فشأنكم أمركم فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً وان تكن شراً فحسب ال سفيان ما أصابوا منها"[1].

ومن المفيد هنا أن نذكر أهم الملاحظات التي حملتها الخطبة، وهي[2]:

1- أن معاوية الثاني على الرغم من حداثة سنه وقلة تجربته عند توليه المسؤولية كان على ما يبدو من خطبته بليغ الحجة، رصين المنطق، غزير النضوج فكراً وبلاغة.

2- كان يمتلك ثقافة واسعة، يدل على ذلك خطبته وبلاغة محتواها كونه كان متابعاً ومطلعاً على تاريخ العرب والإسلام اطلاعاً واسعاً أدرك من خلاله موقع (آل البيت) من العقيدة الإسلامية وخصائصهم وبكونهم يشكلون الامتداد الأصيل للثقافة الرسالة المحمدية.

3- كان يمتلك شجاعة نادرة للتعبير عن رأيه، فقد جاهر فيه وهو وسط قوم يرفضون حتى الهمس الخفي بهذا المعتقد الذي يعتبرونه أشد الأخطار على مصالحهم وبالتالي على نظامهم كله، لاسيما وأن هذه المجاهرة بتلك القناعات جاءت في زمن لم يكن ببعيد عن عصر أبيه (يزيد) الا أشهر معدودات، وعن عصر جده (معاوية) مؤسس الدولة الأموية الا بضع سنين.

4- تضمنت الخطبة أمرين مهمين: أولهما إظهار مساوئ الحكم مؤكداً سيرة أبيه (يزيد) السيئة وما صدر عنه من أعمال أصابت فضائل الإسلام وقيمه في الصميم، وطعنه بالطريق الذي سلكه جده (معاوية الأول) عند وصوله للحكم. وثانيهما نجد أنه قد أقر إقراراً صريحاً وعلانية تمثل في ان ليس لجده أو أبيه في أمر الخلافة أي حق، بل أنها من حق الإمام علي بن أبي طالب وأولاده(عليهم السلام).

وبعد أن رفض أن يوصي، انقطعت أخباره، حيث ذكر انه دخل منزله ولم يخرج الى الناس، وتغيب الى ان مات، فقال بعض الناس -وهو ما إليه نميل- "دس إليه فسقي سماً، وقال بعضهم طعن"[3]. ومن الطبيعي أن يغضب بنو أمية على معاوية لما أقدم عليه، وحملوا معلمه (عمر المقصوص) انه وراء ذلك، واتهموه انه هو الذي علمه ذلك ولقنه إياه وصده عن الخلافة وزين له حب الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وأولاده وقال ما قال. ومع انه رفض اتهاماتهم له هذه وأقسم بالله انه ما فعل ذلك ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي(عليه السلام)، الا إنهم لم يعذروه، بل أخذوه ودفنوه حياً حتى مات[4].

المحور الثاني- الخليفة عمر بن عبد العزيز المصلح:

(1) اليعقوبي، التاريخ، ج2/ ص ص241-242.

(2) ينظر: المحسن، معاوية الثاني والتشيع في البلاط الأموي، ص135- ص136.

(3) الطبري، تاريخ، ج5/ ص531.

(4) الديار بكري، الخميس، ج2/ ص301.

تمكن مروان بن الحكم (64-65هـ/683-684م) وابنه عبد الملك الذي خلفه (65-86هـ/685-705م) من إعادة فرض سيطرة الدولة والقضاء على الحركات المناوئة لها، وبعد جهد كبير تمكنوا من إسكات أصوات طالبت بإحقاق الحق والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، وسار على منوالهم في الحكم من جاء بعدهم، وهم: الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) وأخوه سليمان (96-99هـ/715-717م)، غير أن نداء العدالة والحق الذي خرج من أجله الإمام الحسين(عليه السلام) بثورته الإلهية المباركة دوى مرة أخرى عالياً ومن داخل الأسرة الحاكمة، إذ ندب عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) نفسه لتحقيق المثل والمبادئ التي جاء بها الإسلام، فأنكر بداية أعمال أهل بيته وسماها مظالم[1]، وكتب إلى عماله جميعاً: "أما بعد فان الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنن سيئة سنته عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والإحسان"[2]، وبدأ ببني هاشم حيث أعطاهم الخمس ورد فدكاً، وكان معاوية أقطعها مروان فوهبها لابنه عبد العزيز فورثها عمر فردها على فاطمة الزهراء(عليها السلام) فلم تزل في أيديهم حتى ولي يزيد بن عبد الملك فقبضها[3].

وأخذ عمر بعد ذلك برد مظالم معاوية إلى أن استخلف، فاخرج من أيدي ورثة معاوية وابنه يزيد حقوقاً وردها الى أهلها، وتشدد على بني أمية وحملهم على النزول عما في أيديهم من أموال أخذوها ظلماً بغير استحقاق لها وردها إلى أصحابها[4]. وهذه السياسة تتضمن ثورة على ما كان متبعاً عند بني أمية من ظلم الرعية وعلى ما تعارفوا عليه من إسراف وأبهة واستعلاء على الناس، الأمر الذي دفع هؤلاء إلى تهديده ومضايقته فرد عليهم "انه لا يخشى أي يوم قبل يوم القيامة"[5]، ويبدو هذا التهديد واضحاً في الرسائل المتبادلة بينه وبين عمر بن الوليد بن عبد الملك الذي كتب إليه قائلاً: "انك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضاً لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدواناً، ولن تترك على هذا"[6]، وقد رد عمر بكتاب شديد اللهجة ينم عن تحديه لهم وعزمه على تنفيذ ما عزم عليه[7]، وهو في كل هذا يدرك خطورة موقفهم، خاصة وإنهم أهل العدة والعدد، ولهذا فانه لم ينفذ سياسته الهادفة إلى التغيير بسرعة وبجملة واحدة، وانه رأى من الأنجع له أن ينفذ خطته على

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5/ ص ص341-342 ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5/ ص129.
(2) اليعقوبي، تاريخ، ج3/ ص48.
(3) المصدر نفسه، ج3/ ص48
(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج5/ ص342.
(5) الدينوري، الأخبار الطوال، ص331 ؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص78.
(6) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج2/ ص116.
(7) م. ن، ج2، ص ص116-117.

مراحل[1]، ولكن المنية عاجلته وهو ابن تسع وثلاثين سنة وستة أشهر وقيل أربعون سنة، وذكر انه مات مسموماً[2].

المحور الثالث- ثورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك:

لم تتوقف مسيرة الإصلاح، وروح الثورة لم تنطفئ في نفوس الناس عامة ولاسيما من رجال الحكم والسلطة. فتناغماً مع الثورة الحسينية واستلهاماً لمبادئها العظيمة وتجسيداً لقيمها وتأثراً بمنهجها وأسلوبها، خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف بالناقص[3] وجماعة من أهل بيته سنة 126هـ/743م على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125-126هـ/743-744م)؛ لانتهاكه المحرمات وكثرة فسقه ولذلك دعي بـ(الزنديق الفاسق). إذ كان صاحب ملاهٍ وقيان ومظهر للقتل والجور، متشاغل عن أمور الناس بالشرب والمجون الذي بلغ من مجونه انه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو ووجه مهندساً لذلك[4]. ويمكن إدراك أثر الثورة الحسينية ومبادئها على هذه الثورة من خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بعد قتل الخليفة الوليد، وقد جاء في بعض نصوصها: "أما بعد فاني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ورغبة في الملك واني لظلوم لنفسي ان لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ودينه وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه حين درست معالم الهدى وطفئ نور أهل التقوى وظهر الجبار المستحل للحرمة والراكب للبدعة، فلما رأيت ذلك أشفقت أن غشيكم ظلم لا يقلع عنكم على كثره من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم..."[5].

وبعد نجاح الثورة وقتل الوليد بويع ليزيد بالخلافة وذلك في سنة 126هـ، ولقب الخليفة الجديد بـ(الشاكر لأنعم الله)[6]، ولكن مدة خلافته القصيرة، التي لم تتجاوز ستة أشهر أو دون ذلك[7]، حالت دون تحقيق ما عزم عليه، وقد أشارت المصادر التاريخية إلى انه مات عن عمر لا يتجاوز في أكثر التقديرات ستا وأربعين سنة[8]. وان لم يستطع يزيد تنفيذ ما أراده، فان النتيجة المباشرة هي تحرك الغالبية العظمى من الرعية ولاسيما بعد استشهاد زيد بن الإمام علي بن الإمام الحسين سنة 121هـ، وأخذوا يتذاكرون أفعال بني أمية وما نالوا من آل الرسول(ﷺ) حتى لم يبق بلد الا فشا فيه هذا الخبر،

(1) الزبير بن البكار، الأخبار الموفقيات، ص623.

(2) الديار بن بكار، م. س، ج2/ ص317.

(3) لقب بالناقص لأنه نقص الجند من أعطياتهم (اليعقوبي، تاريخ، ج3/ ص76 ؛ القضاعي، تاريخ، ص116).

(4) اليعقوبي، تاريخ، ج3/ ص75 ؛ الطبري، تاريخ، ج7/ ص ص209-210 وص231 وص ص253-254 ؛ الديار بكري، تاريخ، ج3/ ص320.

(5) الديار بكري، الخميس، ج3/ ص321.

(6) المصدر نفسه، ج3/ ص321.

(7) الطبري، تاريخ، ج7/ ص298.

(8) المصدر نفسه، ج7/ ص298.

ولاسيما خراسان، ووصل الأمر إلى ظهور الدعاة ورؤية المنامات وتدورست كتب الملاحم[1]، وهو الأمر الذي استغلته الثورة العباسية ووظفته لمصلحتها وتمكنت أخيراً من القضاء على الدولة الأموية تحت شعار (الرضا من آل محمد) والعمل بكتاب الله وسنة نبيه[2].

(1) اليعقوبي، تاريخ، ج3/ ص69.

(2) الطبري، تاريخ، ج7/ ص427 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4/ ص ص325-326.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، علي بن الكرم الشيباني (ت:630هـ/1232م)
1- الكامل في التاريخ، دار الفكر (بيروت، 1398هـ/1978م).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت:597هـ/1200م)
2- صفوة الصفوة، ط2، تحقيق محمد فاخوري (بيروت-1399هـ/1979م).
- الديار بكري، حسين بم محمد بن الحسن (ت:842هـ/1405م)
3- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر (بيروت-1283هـ).
- الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود (ت:282هـ/895م)
4- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة-1960).
- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت:748هـ/1347م)
5- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون (بيروت-1401هـ/1981)
- الزبير بن بكار (ت: 256هـ/869م)
6- الأخبار الموفقيات، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني (بغداد-1392هـ/1972م).
- ابن سعد، محمد (ت:230هـ/844م)
7- الطبقات الكبرى، دار صادر (بيروت، 1380هـ/1960م).
- الطبري، محمد بن جرير (ت: 310هـ/922م)
8- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة،1960-1969م).
- القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر (ت: 454هـ/1062م)
9- تاريخ المسمى (عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف)، تحقيق احمد فريد المزيدي (بيروت، 1425هـ-2004م).
- المحسن، محسن خزعل:
10- معاوية الثاني والتشيع في البلاط الأموي، (بغداد- 2010م).
- اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب (ت: 292هـ/904م)
11- تاريخ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم (النجف الأشرف، 1384هـ/1964م).